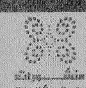
الشعر
العالمي
7
الحديث

هبة العاشق



طاغور

ترجمة : تميم صائب



منشورات
وزارة الثقافة
ج. ع. س
دمشق
2002

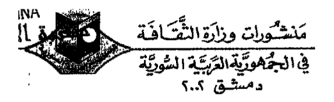
طاغور

هِبة العاشق

شعر

ترجمة

تميم صائب



العنوان الأصلي للكتاب :

TAGORE

Lover s Gift
and
Crossing

من الشعر العالمي الحديث
«٧»

—١—

إيه . . شاه جاهان*

لقد تركتَ قدرتكَ الملكية للتلاشي

لأنكَ رغبتَ في أن تمنحَ الخلودَ لدمعة حب .

إنّ الزمن لايرحم القلبَ البشري

بَل إنه يسخر من كفاحه الكئيب للتذكّر .

لقد فتنته بالجمال فجعلتَه أسيراً

بإكليلٍ لاتذوي أزهارهُ .

الهمسة السرّية التي تناهتْ إلى أذن حبّكَ

* شاه جاهان : هو الأمير الهندي الذي بنى أعجوبة الدنيا "تاج محل" من الرخام تخليداً لزوجته . وفيه دفُنا .

في سكون الليل

تحوّلتْ إلى صمتِ حجارةٍ أبديّ.

وفي حين تنهار الإمبراطوريات فتمسي غباراً

وتمّحي القرونُ في الظلال

فإنّ الرخام يظلّ يتنهّد وهو يتطلع إلى النجوم قائلاً:

«إنني أتذكّر . . إنني أتذكّر»

ولكنّ الحياة تنسى، لأنّ الأبديّة تدعوها

وهكذا تستمرّ في رحلتِها

متحررةً من عبئها،

مغادرةً ذكرياتها

إلى أشكال الجمال البائسة المهجورة.

* * *

-٢-

تعال، ياحبّي إلى عالم جنّتي.

مُرَّ بالأزهار المتّقدة التي تتدافع لرؤيتك.

مُرَّ بها، متشوّقةً لقليلٍ من البهجة المحتَمل حدوثها.

والتي تشبه معجزةً فجائيّةً

لزخرفة الأنوار الآفلة والمراوغة.

ولأنّ هديّة الحبّ خجلة

فإنّها لن تفصح عن اسمها،

بل ستطير عبر الظل،

ناشرةً رعشةً من بهجةٍ على طول التراب .

أدرِكْها ، وإلاّ ستفوتكَ إلى الأبد .

فإنّ هديّةً تتمكّن من الإمساك بها ،

لن تكون أكثرَ من زهرةٍ هشّةٍ ،

أو مصباحٍ ذي لَهَبٍ سيومض ويخبو .

* * *

-٣-

هي ذي الثمار تكتظّ في بستاني ،
ويزحم بعضُها بعضاً .
هي ذي تموج في النور في كربٍ من التخمة .
سيري بكبرياء في بستاني ، يامليكتي ،
واجلسي ثمّةَ في الظلّ ،
ثمّ اقطفي الثمارَ اليانعةَ من أغصانِها ، واعصريها
لتهبَ إلى الآخر حِملَها من الحلاوة لشفتيك .
في بستاني ،
تهزّ الفراشاتُ أجنحتَها تحت الشمس
وترتعش الأوراق ،
وتصخب الثمار لتصل إلى الاكتمال .

* * *

-٤-

إنها شديدةُ القرب من قلبي،

كما المَرْج من الأرض.

عذْبةٌ كما النوم للأوصال المتعبةَ.

حبّي لها هو حياتي التي تجري إلى تمامِها

مثلَ نهرٍ في تدفّقٍ خريفي،

يسعى باستسلامٍ هادئ.

أغنياتي متّحدةٌ بحبّي،

مثل خرير الجدول الذي يغنّي

مع كلِّ أمواجه وتياراتهِ.

-٥-

سوف أطمع بالمزيد،

ولوامتلكتُ السماء بكلّ نجومها،

والعالَمَ بثروته التي لاتنضب.

ولكنني سأكون قانعًا

بالزاوية الأصغر على هذه الأرض،

لوكانت حبيبتي وحدها معي.

* * *

-٦-

في ضوء هذا النهار الباهت من الربيع ، ياشاعري ،
يغنّي أولئكَ الذين يمرّون بغير توانٍ أو تريّث . . .
والذين يضحكون بينا هم يسارعون
بغيرِ التفاتٍ إلى وراء . .
والذين يزهرون في ساعةٍ واحدة بالسعادة المُفرِطة ،
ثمّ يذبلون في لحظةٍ واحدةٍ بغير ندم
فلا تقتعدِ الأرضَ صامتاً ،
تكرّ سبحات دموعكَ وابتساماتكَ الآفلة .

لاتتوقّفْ

لتلتقط التويجاتِ الساقطةَ من أزهار الليلة الفائتة.

لاتذهب بحثًا عن أشياء راغتْ منك،

بغية معرفة المعنى الغامض.

بل غادر الشِّعابَ في حياتك حيثما كانت،

إلى الموسيقى، لتنقذك من أعماق تلكم الشِّعاب.



-٧-

لقد أُهدِر الكثير في صيفٍ طائشٍ واحد،

ولم يبق إلاّ القليل الآن،

لكنّه يكفي لنظم أغنيةٍ تُغنّى لك،

ولنسج سلسةٍ زهريةٍ تشبك بوداعةٍ معصمَك.

يكفي لِيُدلّى على أذنكِ

مثل لؤلؤةٍ قرنفليّةٍ بالغة الكمال،

ومثل همسةٍ حيّة.

يكفي للمجازفة في لعبةٍ لليلةٍ واحدةٍ؛

ثمّ يضيع إلى الأبد.

قاربَي هشٌّ صغير،

لايصلح لركوب أمواجٍ هائجةٍ تحت المطر

بيْدَ أنه لو خطوتِ بنعومةٍ فيه

فإنني سأجذّف بك بكلّ تؤدةٍ

بعيداً إلى وِقاءٍ على الشاطئ

حيث تموّج الماء الداكن يشبه نومًا مكدّرَ الحلم،

وحيث هديل الحمامة من الأغصان المتدلّية

يهب ظلال الظهيرة كآبةً وحزنًا جليلاً.

وفي نهاية النهار،

حين تتعبين

سأقطف سوسنةً مائيةً لأضعَها في شَعرك،

وأستأذن بالانصراف.

-٨-

ثمّةَ متّسَعٌ من أجلك . .

أنتِ وحيدةٌ مع حزُمَكِ القليلة من الرز .

قاربي مزدحمٌ، وحمولتُه ثقيلةٌ، ولكنْ

أنّى لي أن أردّكِ خائبةً؟

جسدُكِ الفتيّ ناحلٌ يتمايل ،

وثمّة ابتسامةٌ متلألئةٌ في طرفي عينيك ،

ورداؤكِ بلون غمامةٍ ماطرة .

ومثل جميع المسافرين الذين سيترجّلون

إلى طرقٍ وبيوتٍ متباينة،

ستجلسين لبرهةٍ في مقدّمة المركب،

ثمّ لن يستبقيكِ أحدٌ إمّا انتهت الرحلة.

- إلى أين تذهبين؟

إلى أيّ منزلٍ لتخزني فيه هذه الحُزَم؟

لن أسألكِ البتّةَ.

ولكنني ساعةَ أطوي أشرعتي وأرسي قاربي،

سأجلس متسائلاً في المساء:

- إلى أين تذهبين؟

إلى أيّ منزلٍ لتحتجني فيه حُزَمك؟

* * *

-٩-

ثقيلةٌ هي سلّتُكِ ياامرأة، ومتعَبةٌ أوصالُك.
فلأي مسافةٍ شرعتِ برحلتكِ هذه،
توّاقةً للربح والانتفاع؟
الطريقُ طويلٌ، والثرى ساخنٌ تحت الشمس..
تأمّلي،
البحيرةُ طاميةٌ عميقة،
وماؤها داكنٌ كعين غراب،
أمّا جروفُها فمنحدرةٌ زلِقةٌ معشوشبةٌ.
اغمسي قدميكِ المُتعَبتين في الماء.
إنّ ريحَ الظهيرة ستمرر أصابعَها من خلال شَعرِك،

وستدندن الحمائم بأغانيها الناعسة،

وستهمس أوراقُ النباتات

بأسرارها المستكنّة في الظلال.

مامن مشكلةٍ

إن مرّت الساعات أو غربت الشمس،

أو إن ضاع الطريق عبر الأرض المقفرة

في النور الشاحب.

إن بيتي هناك،

إلى جوار زهور حنّاء الأسيجة..

سأقودُك إليه.

وسأسوّي فراشًا لك، وأشعل قنديلاً.

ثُمّ في الصباح

حين تستيقظ الطيورُ على ضجّةِ حِلابة البقر..

سأوقظك.

* * *

-١٠-

تُرى . .

ماهو ذلك الشيء

الذي يقود تلكم النحلات من خليّتِها ،

تلكم المتتبّعات للروائح غير المرئية؟!

ماهي تلك الصيحة التي تتردّد في أجنحتِها المتلهّفة؟!

كيف يتأتى لها

أن تسمعَ الموسيقى النائمة في روح الزهرة؟!

ثم كيف تستطيع أن تجدَ طريقَها

إلى المكمن الذي يستلقي فيه العسلُ حييًّا، صامتًا؟!

-١١-

كان ثّمة بد اية ُتفتّحٍ للأوراق فحسب، في الصيف . .

الصيف الذي وصل إلى الحديقة عبر البحر .

كان ثّمَ نشاطٌ وحفيفٌ فحسب، للريح الجنوبية،

ونُتَفٌ قليلةٌ كسولةٌ من الأغنيات

وبعدها انتهى النهار .

فاسمح لريعان الحبّ في الصيف

أن يصل إلى الحديقة عبر البحر . .

واسمحْ لبهجتي أن تولَدَ، وتصفّقَ بكفّيها،

ثمّ ترقص مع الأغنيات الدافقة . .

واجعل الصباح يفتح عينيه على اتّساعهما

بانشداهٍ عذب .

* * *

-١٢-

آهٍ أيّها الربيع !

منذ عصور خلتْ،

حين فتحْتَ البوّابةَ الجنوبيّة لحديقة الآلهة ؛

وهبطتَ فوق الأرضِ الفتيّة البِكْر

اندفع الرجالُ والنساءُ خارج منازِلهم

ضاحكين، راقصين،

يرشق بعضُهم بعضاً بزهر الأرضِ

بمَرَحٍ جنونيٍّ مفاجئ.

وعامًا بعد عام،

صرتَ تأتي بالأزهار ذاتِها التي بعثَرتَها في طريقك،

في نيسان الأوّل ذاك.

ولذا فهي – في عبيرها المتضوّع – اليوم،

إنما تنفثُ تنهُّدَ الأيام التي أضحتْ مجرّد أحلام،

وتنهُّدًا مُفعمًا بكآبةِ ذكرى تلك العوالِمِ المتلاشية.

نسيمُكَ محمّلٌ بنقوشِ الحبّ التي تلاشتْ

من كلّ اللغات البشريّة.

وذاتَ يوم،

بمعجزةٍ عذبة،

دخلتَ حياتي التي كانت مبتهجةً بحبّها الأوّل.

ومنذ ذلك الحين،

صار الخوفُ الحَذِرُ لتلك البهجة الساذجة

يأتيَ مستتراً كلّ عامٍ
في البراعمِ الخضراء المبكّرة لأزهار ليموناتكِ .
زهوركَ الحمراء تحمل في صمتِها الملتهِبِ
كلَّ الأشياء التي كانت تجِلُّ عن الوصف في داخلي .
وهاهي ذكرى الساعات الغنائية في أيام أيّار
تُصدِرُ حفيفاً في ارتعاش أوراقِكَ الجديدة
التي تولد مرّةً بعد مرّة .

* * *

-١٣-

قدّمْتُ لكِ - الليلةَ الفائتة-

خَمرةَ شبابي المُزبِدة.

رفعْتِ الكأسَ إلى شفتيك، وأغلقتِ عينيك،

وابتسمتِ بينما كنتُ أُرفع عنكِ خماركِ..

خُصُلاتُ شَعرِكِ المنثورةُ فوق صدرك

غطّتْ حلاوة وجهِكِ المفعَمِ بالصمت، أمس،

حين غمر حلمُ القمرِ عالَمَ الرقاد.

وهاأنتِ ذي اليومَ تمشين

في سكون الفجر البارد النديّ إلى هيكل الآلهة ،
مستحمّةً ومكسوّةً بالبياض
مع سلّةٍ تنضح بالزهور في يدك
بينما أقف أنا جانبًا تحت ظلّ شجرة ،
محنيّ الرأس ، في هدوء الفجر ،
على الطريق الوحيدة المؤدّية إلى الهيكل .

* * *

-١٤-

اغفري لي ياحبّي،

إذا ماكنتُ نافد الصبر اليوم .

إنه المطر الصيفيّ الأول،

والحَرج على شاطئ النهر مصطفقٌ متمايل،

كما أنّ أشجارَ (الكادام) المزهرة

تغري الرياحَ العابرة بكؤوسٍ مسكِرةٍ من العبير .

انظري؛

من كلّ زوايا السماء،

تفوّقُ البروقُ ومضاتِها ،

وثمّة رياحٌ تتخلّل جدائلك .

اغفري لي ياحبي ،

إذا ماقدّمتُ لكِ اليومَ ولائي .

إنّ العالَمَ اليوميّ مخبوءٌ في عتمة المطر ،

وقد توقّف كلُّ عَمَلٍ في القرية ،

والمروجُ مهجورةٌ مقفِرة . .

في عينيكِ السوداوين ،

يعثرُ قدومُ المطر على موسيقاه

وعلى بابِك يقف تمّوز بتنّورته الزرقاء

مع شجيرات ياسمينٍ ، منتظِراً شَعرك .

* * *

-١٥-

«سمراء».

هكذا يسمّيها في القرية جيرانُها.

بيْدَ أنّها سوسنةٌ لقلبي،

بلى، سوسنةٌ رغم أنّها تفتقر إلى الوسامة.

ساعةَ رأيتُها أوّلَ مرّةٍ في الحقل،

كانت مِزَقُ الغيوم قد أبهتت الضوء،

وكان رأسها عاريًا بلاخمار،

وضفائرُها المنفلتةُ متدلّية على عنقها.

ربّما تكون سمراء كما يدّعي أهل قريتها

ولكنني وقد رأيتُ عينيها السوداوين،

فإنني جدٌّ مبتهجٌ وسعيد.

حركةُ الهواء أنذرتْ بقدوم عاصفة

فاندفعتْ خارج الكوخ إذ سمعتْ

خوارَ بقرتِها المرقّطة الفَزِعة.

وللحظةٍ،

رفعتْ عينيها الواسعتين إلى الغيوم

فانتابَها إحساسٌ بتهيّؤ انهمار المطر من السماء.

وقفتُ - ثّمةَ - في ركنٍ من حقل الرز

فإذا كانت قد رأتني،

فذلك ماتعرفه هي وحدها فحسب

(وربّما أعرفه أنا).

إنها سمراء

كوابلٍ من المطر مرسَلٍ من السماء في الصيف،

وكظلال غابةٍ مزهرة.

سمراء كالتَّوْق إلى المجهول

في ليلة أيار المليئة بالكآبة.

* * *

-١٦-

لقد سكنتْ هنا

قريبًا من البركةِ ذاتِ الدَّرَجات المنبسطة الخَرِبة .

كثيراً ماراقبت القمرَ

الذي يسبب الدُّوارَ إذ يهزّ أوراق الخيزران .

كثيراً ماكانت رائحةُ الأرضِ البليلةِ

تَفدُ إليها عبر أفرع الرزّ الفتيّة في اليوم الماطر .

اسمُها المحبّب معروفٌ هنا

وسط بساتين النخيل هذه ،

وفي الفناءاتِ

حيث الفتيات يجلسن مسهباتٍ بالحديث

وهنّ يطرّزْنَ ألحفتهنّ الشتوية .

الماء في هذه البركة

يحتفظ في أعماقه بذكرى أوصالها السابحة

وقدماها البليلتان تركتا آثارَهما - يومًا بعد يوم-

فوق ممر المشاة المفضي إلى القرية .

النساء اللواتي يأتين اليوم مع أوعيتهنّ إلى الماء

قد رأين جميعهنّ ابتسامتَها تعلو دُعاباتِها الساذجة

والقرويّ العجوز وهو يسوق ثيرانَه إلى مرعاها

معتادٌ على الوقوف ببابها كلّ يومٍ يلقي التحيةَ لها .

كثيرًا مايمرّ مركبٌ مبحرٌ بهذه القرية

وكثيراً مايستريح مسافرٌ تحت شجرة الأثأب* تلك

والمركب المعدّيةُ تعبر إلى المخاضة الأبعد

مُقِلّةً حشوداً من الناس إلى السوق

ولكنّهم لم يروا قَطّ ذلك الموضعَ من القرية ،

قريباً من البِركة بدرجاتها المنبسطة الخَرِبة ،

حيث أقامتْ تلك التي أهوى .

* * *

---

* الأثأب : تين البنغال : شجرةٌ ضخمة .

-١٧-

حين مرّت العصور

ولازمت النحلاتُ حدائق الصيف

ابتسم القمرُ لزنابق الليل

وفوّقت البروقُ قبلاتِها المتّقدة للغيوم

ثمّ ولّتْ ضاحكة.

وقف الشاعر - ثمّة - في زاويةٍ

وحيداً مع الأشجار والغيوم

ومثل زهرةٍ، ظل محتفظًا بقلبه صامتًا

وراح يراقب من خلال أحلامه كما يفعل الهلال . .

ثمّ هام على وجهه كنسيم الصيف بغير ماهدف .

وفي ليلةٍ من ليالي نيسان

عندما ارتفع القمر كفقاعةٍ من أعماق الغروب

وكان ثمّة عذراء مشغولةً بسقاية الشجيرات

وأخرى بإطعام غزالتِها

وثالثةٌ ترقّص طاووسَها

رفع الشاعرُ عقيرتَه بالغناء :

«آهٍ، أصغوا إلى خفايا العالَم

إنني أعلم أن الزنبقةَ شاحبةٌ لأنّها تحبّ القمر

وأنّ زهرة اللوتس تزيح خِمارَها

في حضرة شمس الصباح

والسبب واضحٌ فيما لو فكّرتم

كما أنّ معنى طنين النحلة

في أذن شجيرة الياسمين الفتيّة

قد استعصى علىٰ الفهم

لكنّ الشاعرَ يعرفُهُ» .

هبطت الشمسُ، وقد احمرّ وجهُها خجلاً

واختبأ القمرُ وراء الأشجار

في حين أَسَرَّت الريح الجنوبيةُ اللوتس

إنّ الشاعرَ ليس ساذجًا كما يبدو .

العذارى والفتيان صفّقوا بأياديهم

وصاحوا :

- لقد افتُضِح سرُّ العالَم

ثمّ تبادلوا النظرات ، وغنّوا :

- قَدْرَ استطاعتك

اِقذف سرَّنا إلى الرياح .

-١٨-

ستكون أيامكَ مليئةً بالهموم

إذا فُرِض عليكَ أن تَهبَني قلبَك .

بيتي القريبُ من مفترق الطُّرُق مفتّحةٌ أبوابه

وفكري ذاهلٌ لأنني أغنّي

سوف لا أكون مُكرَهًا في الردِّ على قلبِك

إذا فُرِض عليكَ أن تهبَني إيّاه .

وحتّى لو قطعتُ لكَ الآن وعداً بصورة نغَم

وأنا جدُّ جَدّيٌّ في الحفاظ عليه

ذلك أنَّ خَرْقَ القانون في أيار

خيرٌ من كسرِه في كانون الأول

فلا تتذكّرْ قلبَكَ دائماً،

إذا كان عليكَ أن تهبَه لي.

وحين تغنّي عيناكَ بحب

ويترقرقُ صوتُك مع الضحك

سأسهِب في الإجابة عن أسئلتكِ

وسأحرص على دِقّةِ الإجابة

لتظلَّ مؤمناً بها إلى الأبد

وبعدها، ينفع النسيان!

* * *

-١٩-

مقدّرٌ على الإنسان في الكتاب
أنّه حين يبلغ الخمسين
يجب أن يغادرَ هذا العالَمَ الصاخبَ
إلى عزلة الغابة .
ولكنّ الشاعرَ يصرّح
أن المُعتَزَلَ في الغابة
يجب أن يقتصِرَ على الشباب فقط
ذلك لأنّ منبتَ الزهور
ومثوى الطيور والنحل

وأماكن منعزلةً مخفيّةً

تنتظرُ هناك ارتعاش همسات العاشق

وهناك ضوء القمر

الذي تتضمّن رسالتُه العميقة

أن يهبَ قبلةً واحدةً لزهور المالاتي

وكلّ الذين يعرفون هذا

هم دون سنِّ الخمسين بكثير

فواحسرتاه!

إنّ الشبابَ غِرٌّ، قليلُ التجربة، وعنيد

ولهذا؛ فعلى العَجَزَةِ ملازمة البيوت

ليتولّى أهلُهم رعايتَهم

بينما على الفِتية أن يتعوّدوا

على العزلة في ظلال الغابة

وعلى محاولة اكتسابِ تهذيبٍ صارم.

-٢٠-

أين تجدين الآذانَ المصغية ياأغنيتي؟

هل هي هناك

حيثُ يعكّر المثقّفون نسيمَ الصيف بسعوطِهم؟!

هل هي حيث يتجادل الرجال باستمرار

فيما إذا كانت الدجاجةُ من البيضة أم البيضة من الدجاجة؟!*

---

* حرفياً: فيما إذا كان الزيت يعتمد على البرميل الخشبي، أم البرميل الخشبي على الزيت.

وقد ارتأيت ترجمتها بغير المعنى الحرفي، بغية إيصال الفكرة للقارئ العربي.

هل هي حيث المخطوطات الصفراء

تعبس بوجه طيش الحياة ذات الأقدام الرشيقة؟!

أغنيتي تحتجّ صارخةً:

«آهٍ، لا.. لا.. لا»

أين تجدين الآذان المصغية ياأغنيتي؟

هل هي حيث يزداد الثريُّ غروراً وانتفاخًا

في قصره الرخاميّ مع كتبه النائمة على الرفوف

مغلّفَةً بجلدٍ مدبوغٍ ومطليّةً بذهب

ينظّفها ثّمةَ عبيد

وصفحاتُ هذه الكتب العذراوات

مكرّسةٌ لغموضِ الإله؟!

لهثتْ أغنيتي قائلةً:

«آه، لا.. لا.. لا»

أين تجدين الآذان المصغية ياأغنيتي؟

هل هي هناك

حيث يجلس الطالب اليافعُ محنيّ الرأس على كتبه

وفكره هائمٌ في أرض أحلام الشباب؟!

وحيث يجوس النثر فوق طاولة الكتابة

في حين يختبئ الشِّعرُ في شِغاف القلب؟!

هناك، في وسط تلك الفوضى المغبَرّة،

هل عليكِ ياأغنيتي

أن تشغلي وقتكِ بلعبة الغميّضة؟!

تصمتُ أغنيتي في حيرةٍ حَيِيّة

أين تجدين الآذان المصغية ياأغنيتي؟

هل هي هناك،

حيث العروس منشغلةٌ بأعمال البيت

وماأن تفرغ من شغلِها

حتى تهرع إلى غرفة نومها

ثمّ تختطف من تحت وسادتِها

كتابًا رومانسيًّا عن الحب

مفعَمًا بشذى شَعرِها

كان قد مزّقه طفلٌ برعونةٍ بالغة؟!

تتنهّد أغنيتي، وترتعش برغبةٍ غامضةٍ.

أين تجدين الآذان المصغية ياأغنيتي؟

هل هي هناك،

حيثُ أصغر النغمات الموسيقية التي يُطلقها عصفورٌما

لاتخطئ مرماها أبدًا

وحيث خرير الجدول

يعثر على حكمته الكاملة

وحيث كلّ أوتار العود في العالَم

تمطرِ موسيقاها

فوق قلبين مرفرفين؟!

أغنيتي تخرج من صمتها فجأةً

وتصرخُ عاليًا:

«نعم.. نعم»

* * *

-٢١-

يخيّل إليّ، ياحبّي

أنّه قبل فجر الحياة

وقفتِ تحت بعضِ شلاّلات الأحلام السعيدة

لتحتمي دمكِ بتمرّد سائلِها

أو، ربّما

كان طريقكِ يمرّ عبر حديقة الآلهة

حيث حشودُ الياسمين المَرِح،

والزنابق، وزهور الدفلى

قد تدلّتْ أكوامًا على ذراعيك

فأصبح قلبك – في الداخل – صخّابًا عاصفًا.

ضحكتُكِ أغنيةٌ كلماتُها غارقةٌ في صَخَب الألحان

ونشوةٌ للرائحة غير المرئية في الزهور،

إنّها تشبه ضوءَ القمر

إذ يخترق نافذةَ شفتيكِ

قادمًا من قلبكِ حيث يتوارى فيه.

إنني لاأدري ماأطلب!

إنني أتلعثم..

ماأدريه هو شيءٌ واحدٌ فقط:

ضحكتُكِ هي شَغَبُ الحياة المتمرّدة



-٢٢-

سوف أتحمّل في بيتي بسرورٍ بالغ

ازدراءَ الحضارة حتّى انقراضِها

إذا استطعتُ فقط

- في بعض لحظات المستقبل السعيدة-

أن أولَدَ طفلاً راعيًا في غابة «برنْدا».

طفلاً راعيًا يسيم ماشيَتَه لترعى

بينا هو جالسٌ تحت شجرة الأثأب

مُنفِقًا وقته في ضَفْرِ زهور «الجونغا» أكاليل.

طفلاً راعيًا يحب القفزَ والغوص

في نهر «جامونا» العميق الفاتر.

إنه يدعو خِلاَّنَه ليستيقظوا إمّا يطلع الصباح

وتُهَمْهِمِ كلُّ البيوتِ في الأزقّة

مع صوت ممخضة اللبن

وثّمةَ سُحبٌ غبارية ترتفع من وراء الماشية

وتخرج العذراواتُ إلى فناء الدار

ليحْلبْن «الكيني»

وحينما تزداد الظلالُ عمقًا

تحت أشجار «التومال»

ويلتئم الغسقُ على ضفّتَيّ النهر

وحينما ترتجف الحلاّباتُ بهلَعٍ

وهنّ يعبرْنَ الماء المضطرب الهائج

وترقص في الغـابة الطـواويس المبـهـرجـة بـأذنابِهـا
الممدودة

ترى هذا الراعي يراقب غيوم الصيف .

وعندما تحلو ليلةٌ من ليالي نيسان

مثل زهرةٍ ناضرةٍ متباهية

يتوارى في الغابة مزيّنًا شَعَرَه بريشة طاووس

في حين تكون الحبال المتدلّية

مجدولةً بزهورٍ على الأغصان

والريح الجنوبيّة تخفق بالموسيقى

بينما يكتظّ الرعاةُ المرِحون

على ضفاف النهر الأزرق .

لا ، لن أكون من الرهبان

في هذا العصر الحديث للبنغال الحديثة .

سوف لن أتجشّمَ عناء إشعال مصباح الحضارة

لأهزم الجهل

إذا تمكّنتُ فقط

من أن أولَدَ تحت أيكات «أشوكا» الظليلة

في قريةٍ من قرى «برندا»

حيثُ يُمخَضُ اللبنُ بواسطة العذارى.

* * *

-٢٣-

لقد أحببتُ الضفّةَ الرملية

حيثُ صَخبتْ بطّاتٌ في البِرك المنعزلة

ونَعمتْ سلاحفُ تحت الشمس،

وحيثُ، مع المساء،

تتّخذ قواربُ صيدٍ متناثرةٌ

مُلتَجأً لها في ظلّ الأعشاب الطويلة.

بينما أحببتَ أنتَ الضفّةَ الحرجيّة

حيث اجتمعتْ ظِلالٌ

فوق أذرع أجَماتِ الخيزران،

وحيث قدِمتْ نسوةٌ مع أوعيتهنّ

عبر الممرّ المتمعّج الملتف.

النهرُ ذاتُه تدفّق بيننا

مغنّيًا الأغنية ذاتها لكلا ضفّتيه،

ولقد استمعتُ إليها

وأنا مستلقٍ على الرمل وحيداً تحت النجوم.

بينما استمعتَ إليها

وأنتَ جالسٌ عند حافّة المنحدر

في ضوء الصباح الباكر

ورغم هذا

فإنّ الكلمات التي أصغيتُ أنا إليها

ماعرفتَها أنت

والسرّ الذي تناهى إليكَ أنت

ظلّ إلى الأبد

لغزاً بالنسبة إليّ.

* * *

-٢٤-

نصفُ مفتوحةٍ نافذتُكِ

وستارُكِ نصفُ مرفوع

وهناك تقفين منتظرةً بائعَ الأساور

ليأتي بأشرطتهِ المعدنيّةِ اللمّاعة،

تراقبين متكاسلةً

صريرَ العَربةِ الثقيلةِ فوق الطريق المغبَرّ

وساريةَ المركب الزاحفةَ على طول الأفق

عبر النهر . . بعيداً

العالَمُ بالنسبة إليك

شبيهٌ بترنيمةِ امرأةٍ عجوزٍ فوق مغزلِها

وقد ازدحمتْ قوافيها الفارغة من المعنى

بصورَ عشوائيّةٍ لا تنتظم .

ولكنْ ؛ من يدري

هل هو على طريقه ، ذلك الغريب ،

حاملاً سلّةَ بضائعه الغريبة

في هذه الظهيرة القائظة الكسول؟ !

سوف يعبر بابَك بصيحتِه الواضحة

وسوف تطيرين لفتح نافذتك

حاسرة الرأسِ بغير خِمار

ثمّ تخرجين من ظلمةِ أحلامك

وتلتقين بنصيبك .

-٢٥-

أصافح يديكِ

وقلبي غارقٌ في سواد عينيك

باحثًا عنك . .

أنتِ يامَن تتجنّبينني دائمًا

خلف الكلمات وخلف الصمت!

ومع ذلك،

فإنني أعلم أنه يتوجّب علي

أن أكون مكتفيًا وقانعًا بحبّي

مع ماهو متقطِّعٌ، وهارب

بغيةَ أن نلتقي لو للحظةٍ واحدةٍ

عند مفترق الدروب.

تُرى هل أمتلك المقدرةَ على حَملك

عبر هذا الاكتظاظ من العوالم

وعبر هذه المتاهة المحيِّرةِ من السُّبلُ؟

هل أملك الغذاء الذي

يستطيع مؤازرتكِ

في الرِّحلة الغامضة

المؤدّية إلى مجازات الضياع والموت؟!

* * *

-٢٦-

لو بالصُّدفةِ فكّرتَ بي

سأغنّي لكَ إمّا يرخي المساء المطيرُ

ظلالَه على النهر ،

ساحبًا ببطءٍ ضوءه الباهتَ نحو الغرب ،

وتصبح أثارةُ* اليوم

غيرَ كافيةٍ لعملٍ أو للعب .

سوف تجلس وحيدًا في شرفة الجنوب ،

---

* الأثارة : البقية .

وسأغني أنا من الغرفة المعتِمة

وفي الغسَق المتنامي

سترِدُ ابتسامةُ الأوراق البليلة عبر النافذة

وستصبح الرياح العاصفةُ صخّابةً

فوق غَيْضةِ جوز الهند.

سأرحل،

حين يُحملَ المصباح المُضاء إلى الغرفة

وفيما بعد..

ربّما،

ستصغي إلى الليل

فتسمع أغنيتي

ساعةَ أكون أنا غارقًا في الصمت!

* * *

-٢٧-

لقد أتحفتُ صينيّتي

بكلِّ ماملكتْ يداي وقدّمتُها لك .

وإنني لأتساءل :

تُرى ماذا عليّ أن أجلبَ لقدميكَ غداً؟

لقد صرتُ شبيهًا بالشجرة التي

– في نهاية الصيف المُزهر –

تتطلّع إلى السماء

بغصونِها السامقة الجرداء من أزهارها .

ولكن . . أليس ثمّة لو زهرةٌ مفرَدةٌ واحدة

في كلّ قرابيني الماضية

لم تذبل بسرمديّة الدموع؟

هل ستتذكّرها، فتشكرني بعينيك

ساعةَ أقف أمامكَ بيدين فارغتين

في أيام صيفي المتأهب للرحيل؟!

* * *

-٢٨-

حلمتُ أنها اتّخذتْ مقعدَها

إلى جانب رأسي

وبحنانٍ جعّدتْ شَعري بأصابعها

عازفةً لحنَ لمستِها

نظرتُ إلى وجهِها، وقاومتُ دموعي

إلى أن فجّرتْ سكْرةُ موتِ الكلماتِ غيرِ المُقالَةِ

نومي مثلَ فقاعة.

استيقظتُ، فرأيتُ وهجَ المجرةِ فوق نافذتي

شبيهًا بعالَم من صمتٍ فوق نار .

ثمّ تساءلتُ

هل حلمتْ هي في هذه اللحظة

حلمًا متناغمًا مع حلمي؟!

* * *

-٢٩-

خَطَرَ لي أن أقولَ لها شيئًا
لحظةَ تقابلتْ أعيُنُنا عبر الوشيع
ولكنّها مضتْ
صارتْ الكلمةُ التي خبّأتَها لأقولَها لها
تتأرجح ليلَ نهار، مثلَ قارب
على كلّ موجةٍ من أمواج الساعات.
إنّها تظهر للإبحار في غيومِ الخريف
في بحثٍ خالدٍ عن التفتّح

في قلب أزهار المساء
ناشدةً لحظتها المضيّعة في الغروب .
إنّها تتوامضُ مثلَ يراعاتٍ في قلبي
لتجدَ معناها في ظلمةِ اليأس
الكلمة التي خبّأتُها لأقولَها لها .

* * *

-٣٠-

تطفح زهور الربيع

مثلما يطفح الألمُ المشبوبُ للعاطفة المكتومة

ومع عبيرِهنّ . .

تأتي ذكرى أغاني أيامي الفائتة

فجأةً

يلبس القلبُ أوراقَ أمنيةٍ مخضرّات

لم تأتِ حبيبتي ،

بيدَ أنني أحسّ لمستَها على أوصالي

وصوتها يردُني عبر الحقول العَطِرة .

نظرتُها معلَّقةٌ في عمق السماء الحزين

ولكنْ؛ أين عيناها؟

قُبُلاتُها انتقلتْ مسرعةً في الهواء

ولكن؛ أين شفتاها؟

* * *

-٣١-

(طاقة زهر)

كانت أزهاري

تشبه لبنًا وشهْدًا وخمراً

حزمتُها في طاقةٍ بشريطٍ ذهبي

ولكنّها أفلتتْ من عنايتي المشدّدة

وفرّتْ بعيداً

وحده الشريط بقي لي.

كانت أغانيَّ

تشبه لبنًا وشهْدًا وخمراً

شُدَّتْ إلى إيقاعِ قلبي النابض
ولكنّها بسطتْ أجنحتَها
وطارت بعيداً في الساعات الكسولة الأثيرة
وهاهو قلبي الآن يخفق بلاصوت .
كانت الحسناء التي أحببت
تشبه لبنًا وشهْداً وخمراً
شفتاها مثلُ زهرة الفجر
وعيناها نحلتان سوداوان
ولقد أكرهتُ قلبي على الصمت
كيلا يُروِّعَها
ولكنّها راغت منّي
مثل زهوري وأغنياتي
وظلّ حبّي وحيداً

-٣٢-

ذات مرّة . .

عندما قرَعَ اليومُ الربيعيُّ بابنَا

ظللتُ منشغِلاً بعملي

وماأجبْتَ أنتَ عليه .

وهاهو الآن

آتٍ مرّةً أخرى

وأنا وحيدٌ مكسورُ الفؤاد

أحارُ كيف أصرفُه عن الباب .

حين جاء لُيتوِّجَنا بالفَرَح

كانت البوّابةُ مغلَقةً بوجههِ

والآن؛ حين يأتي بهديّتنا من الحزن

يفترض على طريقِه

أن يكونَ مفتوحًا

* * *

-٣٣-

الربيعُ الموّارُ بالمرَح

الذي حلّ بحياتي مرّة بضحكتِه السخيّة

مالئًا ساعاتها بأزهارٍ مسرفةٍ

ومضيئًا السماوات ببرقِ قُبلاتٍ ملتَهبةٍ

من أوراق (أشوكا) حديثة التبرعم،

يجيء الآن منسلاً إلى عزلتي

عبر الممرّات المهجورة

على طول الظّلال الكئيبة

مُثقَلاً بالصمت

ويجلس ساكنًا على شرفتي

مُلقيًا نظرته نحو الحقول

حيثُ اخضرار الأرضِ يُغمى عليه

مُنهَكًا تحت شحوبِ السماء الكلّي

* * *

-٣٤-

حين أزِفتْ لحظةُ وداعِنا

مثلَ غمامةٍ ماطرةٍ مُدلاّةٍ منخفضة

لم يكنْ لديَّ من الوقتِ سوى مايكفي

لربط شريطةٍ حمراء حول معصمِك

بيدين مرتجفتين

وهاأنذا اليوم

أقتعد العشب وحيداً

في موسم زهور (الماهوا)

مع سؤالٍ مرتعشٍ واحدٍ يدور في خلدي:

«هل مازلتِ محتفظةً بالشريطة الحمراء الصغيرة

معقودةً حول معصمك؟»

لقد رحلتِ

في الطريق الضيّقة التي

تحيط بحقل الكتّان المُزهر.

ورأيتُ إكليلَ زهر عشيتّي

مايزال متدلّيًا بغير قيدٍ من شَعرِك.

ولكنْ..

لماذا لم تنتظري

حتّى أتمكّنَ في الصباح

من جني زهورٍ جديدةٍ لهديّتي الأخيرة؟

وتساءلتُ فيما إذا - بغير علمك-

قد سقط على دربِك

إكليلُ الزهر المدلّى بغير ثباتٍ من شعرك؟

أغنياتٌ عديدةٌ غنّيتُ لكِ،

صباحَ مساء،

الأخيرةُ منها، حملتِها في صوتكِ عندما رحلتِ.

لم تمكثي أبداً

لسماع الأغنية الوحيدة غير المُغنّاة

التي كنتُ قد أعددتُها لكِ وحدكِ وإلى الأبد

وتساءلتُ فيما إذا كنتِ - في نهاية الأمر-

سئمةً من أغنيتي التي هممتِ بها لنفسك

وأنتِ تتأوّدين في الحقل.

* * *

-٣٥-

غيومُ الليلةِ الفائتة

كانت منذرةً بالمطر ،

وأغصانُ(الأملَك) كافحتْ بشدّة

تحت قبضات الريح العاصفة .

رغبتُ، فيما لو أتت الأحلامُ إليّ،

أن تأتي على شكل محبوبي الأثير

في هذه الليلة المتوحّدة المسرفة بالمطر .

ماتزال الرياحُ تعوِل مجتازةً الحقول ،

وشاحبةٌ هي وجناتُ الفجر الملطّخة بالدمع .

ولأنّ الحقيقةَ قاسيةٌ

فإنّ أحلامي تنتهج طُرُقًا خاصةً بها وحدها

رغم عَبَثِ سيْرِها .

الليلة الفائتة ،

عندما كان الظلامُ ثمِلاً بعاصفة

وكان المطر مثل ستار الليل

ممزّقًا بواسطة الرياح إلى أشلاء ،

تُرى هل شعرتْ الحقيقةُ بالغيرة

حين أتى الخداعُ إليّ

بمظهرِ محبوبي الأثير

في تلك الليلة الخالية من النجوم

والمسرفة بالمطر ؟

-٣٦-

ياقيودي

لقد وقّعتِ أنغامًا في قلبي

ولقد لعبتُ معكِ طوال النهار

ثمّ جعلتُكِ حِليْتي .

خيرُ صديقين كنّا - ياقيودي-

وكانت ثمّة أوقات

شعرتُ بالخوف منكِ فيها

بيد أنّ خوفي دفعني

إلى أن أحبّكِ أكثر

لقد كنتِ شريكةَ ليلتي المعتمةِ الطويلة

لذا فإنني أنحني احترامًا لك

قبل أن ألقي عليكِ تحيّةَ الوداع

ياقيودي . .

* * *

-٣٧-

كثيرةٌ هي المرآت التي كانت فيها
دفتُكَ مهشّمةً ياقاربي ،
وأشرعتكَ ممزّقةً أشلاء ،
ومع هذا ؛ فغالبًا مااندفعتَ باتجاه البحر
ساحبًا مرساتكَ بلامبالاة .
ولكن . .
ثّمةَ - اليوم - صدْعٌ ممتدّ في بَدَنِك
والعنبرُ ثقيل ،
وهاقد ألحّ عليكَ الوقتُ

لتنهيَ رحلتك

ثمّ تتأرجح في نومٍ

في مهد الماء؛ قريبًا من الشاطئ الرملي.

واحسرتاه!

إنني أعلم أنّ كلّ التحذيرات سدى

فالوجه المقنّع للقدَر المعتِم يغريك

وجنون العاصفة والأمواج يسيطرُ عليك.

موسيقى المدّ والجزْر تعلو

وهاأنتَ تتمايل بحمّى تلك الرقصة.

وإذًا..

حطّمْ قيدكَ ياقاربي

وكنْ حرًّا

ثمّ اندفع بشجاعةٍ

نحو حتْفك.

* * *

-٣٨-

التيار الذي اندفعتُ فيه

تدفّق مسرِعًا وقويًّا

حين كنتُ في ريعان شبابي .

كان نسيمُ الربيع يهب نفسَه بإسراف

وكانت الأشجار متّقدةً بالزهر ،

ولم تكن الطيور تغفل عن الأغاني .

لقد أبحرتُ بسرعةٍ طائشةٍ مستهترة

محمولاً بتدفّقِ العاطفة

ولم يكن لديّ وقتٌ لأرى وأعي العالَم في وجودي

والآن؛ وقد انحسر ذلك الشباب

ورُميتُ خالي الوِفاض على الضفةّ

صار بإمكاني أن أسمعَ الموسيقى العميقة

وهاهي ذي السماء

تفتح لي قلبَها من النجوم

* * *

-٣٩-

ثّمة متفرّجٌ يجثم خلف عيني

يبدو كما لو أنّه يرى

أشياء في عصور وعوالم

تقع وراء شاطئ الذكرى،

هذه الأشياء المنسيّة

تتلألأ فوق العشب

وترتعشُ فوق الأوراق.

وقد رأى تحت الحُجُب الجديدة

وجهَ الحبيب الوحيد

في ساعات شَفَقِ العديد من النجوم المجهولة .

ولذا فإنّ سماءَهُ تتراءى توقًا

للقاءاتٍ ووداعاتٍ لاعدّ لها ،

وتشوّقًا يتخلّل نسيمَ الربيع هذا . .

هو تشوّفٌ مفعَمٌ بهمسة عصورٍ بغير بداية .

* * *

- ٤٠ -

هلّتْ رسالةٌ من أيام شبابي الراحل، قائلةً:

«إنني أنتظرك

بين ارتعاشات آذار الذي لم يولَد

هناك؛ حيث تنضج الابتسامات

من أجل دموع التَّوق الموجعِ وساعاته

لأغانٍ غيرِ مغنّاة»

إنّها تقول:

«تعالَ إليّ. . عبر طريق الشيخوخة المهترئ

عابراً بوّابات الموت،

فبسبب ذبول الأحلام، واضمحلال الأمنيات

فإنّ ثمارَ السنةِ المجتناةَ تتعفّن

ولكنني أنا هي الحقيقة الخالدة

وستقابلني مرّةً بعد مرّة

في رِحلةِ حياتكَ من شاطئ لآخر».

* * *

-٤١-

الفتياتُ في الخارج

لجلْبِ الماء من النهر .

ضحكاتُهن تَرِدْ من خلال الأشجار .

وإنني توّاقٌ للقاء بهنّ في الممرّ الضيّق

حيث ترعى المِعزاتُ في المكان الظليل

وتنتقل السناجبُ قفزًا

من الشمس إلى الظلّ، فوق الأوراق المتساقطة .

إنّ عملي اليوميَّ قد أُنجِزَ تمامًا

فقد امتلأتْ جِراري

ولكنني مازلتُ واقفًا أمام بابي

لأراقب الاخضرارَ المتلألئ لأوراق(الأريكا)

ولأنصِتَ إلى النسوةِ المتضاحكات

وهنّ ذاهباتٌ لجلْبِ الماء من النهر .

إنني أتلذّذُ بحمل إنائي المليء يومًا بعد يوم

في نداوةِ الصباحِ المنعِش

وفي بصيصِ المساء المُتعَب

كم ثرثرَ معي ماؤه المتقرقرُ

عندما كان عقلي متكاسِلاً ،

وكم ضحكَ مع الضحكة الصامتة

المنبعثة من أفكاري المبهجة ،

وكم تكلّم مع قلبي بتنهّداتٍ دامعة

ساعةَ كنتُ حزينًا

وقد حملْتُه معي في الأيام العاصفة

عندما كان المطرُ الصاخب

يحجب هديلَ الحمامات القلِق .

عملي اليوميّ قد أُنجز

فقد امتلأت جِراري

وهاهو الضوء يبهتُ في الغروب

وثمّة ظلالٌ تلتئم تحت الأشجار

وتنهّدٌ يأتي من حقل الكتّان المزهر

أمّا عيناي الحزينتان

فإنّهما تلاحقان الممرّ الضيّق

الذي يخترق الغابة

باتجاه ضفّة النهر العميق

-٤٢-

هل أنتَ مجرّد صورة

ولستَ حقيقيًّا كهذه النجوم أو هذا الثرى؟

إنها تنبض متوائمةً مع نبض الأشياء

بينما أنتَ في سكونك

متبرِّجٌ بمعزلٍ عنها.

أذكر ذلك اليوم

حين مشيتَ إلى جانبي

كانت أنفاسُكَ دافئةً

وأوصالُكَ نابضةً بالحياة .

صوتُكَ أعطى العالَمَ لغتَه

وألصقَ قلبي بوجهِك .

توقّفتَ – فجأةً –عن مشْيك

في جوار ظِلّ الأبديّة

ومضيتُ أنا وحيداً .

الحياة – شبيهة بطفل–

تضحك هازّةً حشرجة الموت الذي

تحمله في مشيتَها

إنها تومئ إليّ

وأنا أتعقّب اللامرئي

بيد أنّكَ مازلتَ في المكان الذي توقّفتَ فيه

وراء ذلك الثرى ، وتلكم النجوم

وهاأنتَ مجرّد صورة.

لا، لن أقبلَ بهذا، ولن يكون..

فلو توقّف فيضُ الحياة منكَ تمامًا

فسوف يتوقّف النهرُ عن تدفّقِه

وسيتوقف وقْعُ أقدام الفجر عن إيقاعاتِه من الألوان

ولو تلاشى غَسَقُ شَعرِك الوامض

في الظلام الميئوس منه

فسيموتْ ظِلُّ الغابة في الصيف مع أحلامه

أصحيحٌ أنني نسيتُك؟!

نحن نسرع بلامبالاة؛ وبغير التفات

متجاهلين الزهور قرب سياج حيّد الطريق،

وذات يوم، لابدّ لهذه الزهور أن تزفر بشكلٍ عفويّ

بوجه نسياننا؛ مالئةً إياه موسيقى.

لقد ارتحلتَ عن عالَمي

لتتخذَ مجلسًا لك عند جذر حياتي .

وإذًا . . هل سقطتْ هذه الذكرى المنسيّة في هاويتِها؟

ماأنتَ بسابقٍ لأغنياتي

إنّكَ إحداها .

لقد جئتَني مع شعاع الفجر الأول

وقد أضعتُكَ في الذَّهَبِ الأخير من المساء

ومنذ ذلك الحين

وأنا ألقاك دائمًا في العتمة

لا . . لستَ مجرّد صورة .

* * *

-٤٣-

ياموت!

لقد خلّفتَ وراءك في حياتي

حزنَ الأبديّة العظيم

ولقد صبغتَ أفقَ تفكيري بألوان الغروب

تاركًا أثرَ دموعٍ تعبر الأرضَ نحو سماء الحبّ،

وشبكتَ بذراعيكَ الغاليتين

اتّحادَ الحياة بالموت فيَّ، برباط عرس.

ربّما بإمكاني رؤيتك

ساهرا هناك على الشرفه ، مصيئاً مصباحك ،

حيث تتقابل نهايةُ كلّ الأشياء مع بدايتِها .

إنّ دنياي قد رحلتْ بعيداً

عابرةً الأبواب التي فتحتَها

وأنتَ محتفظٌ بكأسِ الموت لشفتيّ

مالئًا إيّاه بحياةٍ من حيواتكِ .

* * *

-٤٤-

حين – بموتِكَ –

استسلمتَ لكلِّ الأشياء التي

هي بِمنأى عني،

مغيبًّا عن نظر آلاف الأشياء في العالم

لتكونَ متجدِّدًا دائمًا في حزني،

شعرتُ أن حياتي

قد بلَغَتْ تمامَ نضجِها

وأنّ الرجلَ والمرأة

قد أصبحا متّحدَيْن فيَّ إلى الأبد

-٤٥-

امنحي حياتي البائسة

جمالاً ونظامًا ياامرأة

كما منحتِهما لبيتي عندما كنتِ حيّة .

اكنسي بعيداً

شظايا الساعاتِ المغبرّة

ثمّ املئي الجِرارَ الفارغة

وأصلحي كلّ إهمال .

وبعدها . .

افتحي بابَ المزار المقدّس

وأشعلي الشمعة،

ودعينا نتقابل هناك بصمت

أمام إلهنا.

* * *

-٤٦-

تحدِّق السماءُ إلى زرقتِها اللامتناهية وتحلم،

ونحن - الغيوم - نزواتُها

بغير مابيتٍ لنا.

النجومُ تتألّق على تاج الأبديّة،

وسِجلاّتُها دائمةٌ مستمرّة

في حين أنّ سِجلاّتنا

مكتوبةٌ بقلم الرصاص

لتزولَ في اللحظة القادمة.

إنّ دورنَا هو أن نظهرَ على خشبة مسرح الأثير

لندقَّ على طبلنِا

ونزجَّ بلحظات الضحك .

ولكن . .

من ضحكنِا يأتي المطر

المطر الحقيقي إلى حدٍّ ما

والرعد الذي لايمزح .

وعلى الرغم من ذلك

فنحن لانملك أن نتشكّى من الزمن

من أجل أن ننال ثوابًا .

فالنَّفَس الذي نفَخنَا إلى الوجود

ينفخُنا بعيدًا عنه

قبل أن نعطى اسمًا .

-٤٧-

الدرب*

هي رفيقتي المشدودة إليّ بإحكام.

والتي تتحدّث معي طوال النهار

من تحت قدميّ

وتغنّي لأحلامي طوال الليل.

ليس للقاءاتي معها بداية،

إنّها تبدأ دائمًا في كلّ فجر،

---

* الدرب: في الإنجليزية (road) مؤنثة، وقد آليت عدّها كذلك كما فعل طاغور، ليكتمل المعنى الذي أراده.

مجدّدةً صيفَها بزهورٍ ناضرةٍ وأغانٍ،
وكلُّ قبلةٍ جديدةٍ منها
هي القبلة الأولى بالنسبة إليّ.
الدربُ وأنا عاشقان،
إنني أغيّر ردائي من أجلها
ليلةً بعد ليلة.
مخلّفًا ورائي الرداء القديم الرثّ
في النزل الذي على حيّد الطريق
حين يهلّ الفجر.

* * *

-٤٨-

لقد اعتدتُ المرور في الطريق القديم كلَّ يوم .

آخذاً ثماري إلى السوق ،

وماشيتي إلى المروج ،

ومعدياً مركبي عبر النهر

حتى باتت كلُّ الطرُق معروفةً بالنسبة إليّ .

وذات صباح ،

كانت سلّتي مثقلةً بسلَعِها

وكان الرجالُ منشغلين بأعمالهم في الحقول .

والمراعي تضجّ بالماشية

وقد جاش صدرُ الأرض

بمرحِ الرزّ الذي حان حصادهُ.

فجأةً..

حدثتْ رجفةٌ في الهواء

وتراءتْ السماء كما لو أنها

تقبّلني على جبيني

فاستيقظ فكري

مثلَ صباحٍ خارجٍ من السديم

نسيتُ أن أواصلَ مسيري

خطوتُ عدّة خطواتٍ حائداً عن الطريق

فتراءى عالمي المألوفُ غريباً عليّ

مثل وردةٍ لا أميّزُ منها

سوى أنها متبرعمة .

كانت معرفتي اليومي خجلةً

وانجرفتُ بسرعةٍ إلى أرض عبقرِ الأشياء

وإنه لمن حسن حظي

أنني أضعتُ طريقي ذلك الصباح

ووجدتُ طفولتي الخالدة .

* * *

-٤٩-

- أين السماء؟

تسألُني ياطفلي .

- يقول الحكماء :

إنها وراء حدود الحياة والموت

وإنها لاتتأثّر بإيقاع الليل والنهار

فهي ليست من هذه الأرض .

ولكنّ شاعركَ يعلم أن سَغَبَهَا السرمدي

هو للزمان والمكان .

وإنّها تناضل دائمًا لتولد في الثرى الخصب .
السماء مكتملةٌ في جسدِكَ الحلو ياطفلي
وفي قلبِكَ الخافق .
إنّ البحرَ يقرع طبولَه بفرح ،
والزهورَ تقف على رؤوسِ أصابعِها لتقبّلَك ، لأنّ
السماء مولودةٌ فيك ، وبين ذراعَي الأرض الأم .

* * *

-٥٠-

(الطفلة)

«تعال ياقمر

انزلق

وقبِّلْ حبيبتي من جبينِها»

هكذا صاحت الأمّ

وهي تحمل طفلتَها في حِجْرِها؛

بينما كان القمر يبتسم كأنّه يحلم.

شذًا صيفيٌّ غامض

يأتي من هناك في الظلمة

وأغاني طائرٍ ليليّ

من عزلة ظِلٍّ غيْضةِ(المانغو).

ومن بعيد..

تستيقظ قريةٌ على ينبوع ألحانٍ حزينةٍ

متدفِّقٍ من مزمار فلاّح

والأمّ الشابّة تدندنُ بعذوبة

فيما هي جالسةٌ على المصطبة

وطفلتها في حضنها:

«تعال ياقمر

انزلقْ

وقبِّل جبينَ حبيبتي»

ذات مرّة

راحت تبحثُ عن ضوء السماء

ثمّ عن ضوء الأرض في ذراعيها،

وإنني لأعجَبُ لهذا الصمتِ الهادئ للقمر.

صارت الطفلةُ تضحك؛ وهي تعيد نداء أمِّها:

«تعال ياقمر، تعال إلى الأرض»

تبتسم الأمُّ، ويبتسم القمر

وأنا، الشاعر، زوج أمّ الطفلة

أراقب مختبئًا هذه اللوحةَ من الخلف.

* * *

-٥١-

اليومُ الخريفيُّ المبكِّر

صافٍ بغير غيوم،

والنهر طافحٌ إلى الحافّة

غاسلاً الجذورَ المُعرّاة

للشجرة المتقلقلة القريبة من المخاضة.

الطريقُ الضيِّق الطويل

كأنّه لسانُ القرية الظمآن

ينحدر إلى النهر.

قلبي مليءٌ لأنني أراقب نفسي،

وأرى السماء الصافيةَ والماء المتدفّق.

وأشعر بالسعادة منتشرة

فوق مساحةٍ واسعةٍ

بسيطة مثلَ ابتسامةٍ فوق وجه طفل.

* * *

-٥٢-

سئمًا من الانتظار

تقطّع قيودكَ زهورًا برِمةً

قبل رحيل الشتاء .

النظراتُ الخاطفةُ التي أرسلها القادمُ غيرُ المرئيّ

وصلتْ إلى ترقُّبِكَ على جانب الطريق .

فحملتَ راكضًا لاهثًا

ياسميناتٍ متهوّرةً

وأعدادًا جمّةً من الزهور المُشاغبة .

لقد كنتَ أولّ من تقدّم

لخرق قانون الموت،

فقد أقلق الهواءَ صَخَبُ لونِكَ وعِطرِك.

ضحكتَ وسخرتَ وكشفتَ عن صدرِك

ثمّ تساقطتَ أكوامًا.

سيأتي الصيفُ في حينه

ناشراً شراعه فوق مدِّ ريح الجنوب.

ولكنكَ لم تحصِ أبداً اللحظاتِ البطيئة

لتكون على ثقةٍ من هذا القدوم.

فقد أنفقتَ بإهمالٍ كلَّ مالديك في الطريق

بسعادة الوفاء الشاقّ الرهيب.

لقد سمعتَ خطوات قدميه من بعيد،

فطرحتَ عباءةَ الردى ليطأها.

إنّ قيودَكَ تتحطّم

حتى قبل أن يظهرَ المنقذ

فأنتَ تجعله مِلكًا لك

قبل أن يجيءَ مطالبًا بك .

* * *

-٥٣-

(زهرة الشامبا)

فتحتُ برعمي

حين لفظ نيسان أنفاسَه الأخيرة،

وسفع الصيفُ بقُبلاتهِ الأرضَ العنيدة.

أتيتُ موزَّعةً بين الرهبة والفضول،

مثل عفيريتٍ لَعوب

يختلس النظرَ إلى صومعةِ ناسك.

سمعتُ الهمسات المرتعبةَ

المنبثقةَ من الغابةِ الجَزِعة،

وعبرّ َطائرُ (الكوكل) عن كسل الصيف.

ومن خلال حجابِ أورِاق حجرة مولدي المرتعشة

رأيتُ العالم متجهِّمًا ورماديًا وجموحًا

وبإقدامٍ

تفتّحتُ قويةً مليئةً بثقة الشباب

ورحتُ أعبُّ النبيذَ الناريّ

من كأسِ خمر السماء المتّقد

ثمّ بحيويةٍ

حيّيتُ الصباح

أنا، زهرة الشامبا،

التي تحمل عطرَ الشمسِ في قلبِها.

* * *

-٥٤-

في بداية الزمن

ثّمةَ امرأتان انبعثتا

من ممخضة حلم الإله .

الأولى : هي الراقصةُ فوق بلاط الفردوس

هي رغبة الرجال

هي التي تضحك

فتقتلع عقولَ الحكماء

من تأملاّتِها الباردة .

وعقولَ الحمقى من فراغِها

ثمّ تبعثِرُ كلَّ تلك العقول

مثل بِذارٍ في أيدٍ طائشةٍ لامبالية

في رياح آذار المبذِّرة

وفي نوبة جنون إزهار أيّار .

والأخرى : هي ملكة السماء المتوّجة ،

هي الأم

المستويةُ على عرش الخريف الذهبي الخصب

هي التي في الزمن الحاصد

تجلبُ قلوبًا ضالّةً

إلى عذوبة الابتسامة برغم الدموع ،

وإلى بحر الجمال برغم بحر الصمت .

تجلبها إلى معبد المجهول ،

وإلى نقطة الالتقاء العظيم

بين الحياة والموت .

-٥٥-

مرتجفٌ هواء الظهيرة

مثل أجنحة اليعسوب الشفّافة.

أسطحةُ أكواخ القرية تحتضن الطير

كما تحتضن أهاليها الناعسين،

بينما يغني طائر (كوكل) غيرُ مرئيّ

من وراء عزلتِه المغطّاة بالأوراق.

النغماتُ المنعشةُ العذبةُ

تنزلق فوق الكدْح غير المتناغم للزخَم البشريّ

مضيفةً موسيقى لهمساتِ العاشقين

ولقبلاتِ الأمّهات ولضحكة الطفل .

هذه النغمات تتدفّق فوق أفكارنا

مثل جدولٍ فوق حصى

صاقلاً إيّاها بجمالٍ

في كلّ لحظةٍ لاواعية .

* * *

-٥٦-

كان المساء موحِشًا . .

هكذا كنتُ أراه

وكنتُ أطالع في كتاب إلى أن جفّ قلبي ،

وخيِّلَ إليّ أنّ الجمال كان شيئًا مُصاغًا

في كلمات ِالمتاجرين .

متعبًا أغلقتُ الكتابَ ؛ وأطفأتُ الشمعة ،

وفي لحظةٍ امتلأتْ الغرفةُ بضوء القمر .

ياروحَ الجمال ، كيف أمكنكِ

- أنتِ التي تتألقين على حوافّ السماء-

أن تقفي مختبئةً وراء لهب الشمعة البالغ الضآلة؟!

كيف أمكن لُحزمةٍ من كلمات كتابٍ عبثية

أن ترتفع مثل غشاوة وسديم

تلك التي صوتُها هدّأ قلب الأرض

بسكونٍ أجلّ من أن يُذكر؟!

* * *

-٥٧-

هي ذي أيّامُ خريفي . .

وإنّها قد أقلقت قلبي .

إنّ الخلاخيلَ المتلألئةَ على كاحليها .

رنّتْ في دمي ،

وحجابَها السديميّ قد اهتزّ في روحي .

إنني أعرف لمسةَ شعرِها اللاهث

في كلّ أحلامي

إنها تعلو الأوراقَ المرتعدةَ

التي رقصتْ في نبضات حياتي.

وعيناها اللتان تبتسمان لي

من خلال السماء الزرقاء

قد شربتا نورَهما منّي.

* * *

-٥٨-

ثمّة أشياء تحتشد وتضحك عاليًا في السماء.

سحائب الغَبار والرمال

ترقص وتدوِّمُ مثل أطفال،

وعقلُ الإنسان مُثارٌ بصيحاتَها،

أمّا أفكارهُ

فتتوق إلى أن تتزاملَ مع الأشياء في اللعب.

أحلامُنا - مندفعةً في نهر الغموض-

تمدُّ أذرعَها لتتشبّثَ بالأرض

لكنّ محاولاتِها تتصلّبُ
متحوّلةً إلى آجرٍّ وصخور
وهكذا تُبنى مدينةُ الإنسان .
ثمّةَ أصواتٌ تأتي أسرابًا من الماضي ،
باحثةً عن إجاباتٍ من اللحظاتِ المُعاشة .
رفرفاتُ أجنحتِها
تملأ الهواءَ ظِلالاً مرتعدةً هيّابة
والأفكارُ الساهرةُ في عقولِنا
تغادر أعشاشَها لتحلّقَ فوق بيداء من الإعتام
في ظمأٍ شديدٍ متّقدٍ نحو التشكّل .
ماهذه الأفكار سوى سائحين بغير ما مصباح ،
ينشدون شاطئَ النور
ليجدوا أنفسَهم في الأشياء .

ستُقتَنَصُ هذه الأفكار

في شَرَكِ قوافي شاعرٍ ما ،

وستقيمُ في أبراج القرية

التي لم تُخَطَّطْ بعد .

إنّها تحتجّ على الحروب

التي ستجري في ساحاتِ قتال المستقبل ،

وهي تدعو لاتّحادِ الأيدي في النزاعات

لكي يحلَّ السلام .

* * *

-٥٩-

إنّهم لايبنون أبراجًا عاليةً

في الأرضِ التي هي ملكي

وملكُ الآخرين جميعًا .

مرْجةٌ مخضرَّةٌ مُعشبة

تتهادى على جانب الطريق

مع جدولٍ من ماءٍ هاربٍ إلى شاطئها .

النحلُ يُكثِر التردّد

على شرُفاتِ الكوخ المزهر بالألم .

يشرع الرجالُ في رحلةٍ
لأداء غرضٍ ما بابتسامة،
وفي المساء يعودون إلى منازلهم بأغنيةٍ
بلا مقابلٍ أو أجرْ
في الأرض التي هي ملكي
وملكُ الآخرين جميعًا.
في الظهيرة..
- جالساتٍ في برودةِ فناءات الدُّور-
تنشط النسوةُ وتُدِرْنَ دواليبَ غزلِهِنّ،
حينما عن بُعْد..
تَرِدُهُنّ أغنيةُ الحصاد،
وهي تسوق أمامها موسيقى ناياتِ الرعاة.
إنّها تُثْلِجُ قلوبَ عابري السبيل الذين يغنّون

وهم يعبرون الظِّلالَ المضاءة بوهنٍ
في الغابة ذات العبير،
في الأرض التي هي ملكي
وملكُ الآخرين جميعًا.
يبحر التجّارُ بسِلَعِهِم نزولاً في النهر
ولكنّهم لا يلقون مرساتَهم في هذه الأرض،
ويتقدّم الجنودُ برايات مرفرفةٍ
بَيْدَ أنّ الملِكَ لا يوقف أبدًا عربتَه.
والمسافرون الذين يأتون من بعيد
ليستريحوا هنا لهنيهةٍ قصيرة،
يغادرون دون أن يعرفوا ما الذي يجري
في هذه الأرض التي هي ملكي
وملك الآخرين جميعًا.

هنا . الحشودُ لا يصدم بعضُهم بعضًا في الطُّرُقات .

آه ياشاعر !

انصبْ أعمدةَ بيتِكَ في هذه الأرض ،

واغسلْ عن قدميك غبار التجوالات الطويلة ،

ثمّ دَوْزِنْ أوتار عودِكِ

وفي نهاية النهار

ارْمِ بجسدِكَ على العشب البارد

تحت نجمة السماء

في الأرض التي هي ملكي

وملكُ الآخرين جميعًا .

* * *

- ٦٠ -

إليكَ نقودكَ ياعضوَ المجلس الملكيّ.

أنا من بين النسوة اللائي

أرسلتَهنّ إلى الضريح المقدّس في الغابة

لِيُوقِعْنَ في شراكِهنّ الناسكَ الشاب

الذي لم يرَ امرأةً قَطّ. .

فشلتُ في تنفيذ أمرِك.

كان ضوء النهار باهتًا

حين قَدِمَ الناسكُ الفتى ليستحمَّ في النهر.

خصُلاتُ شَعرِه السمراء المصفرّةُ
ازدحمتْ فوق منكبيه
مثلَ قزعات غيوم الصباح،
وأطرافُه متألّقةٌ كشعاع شمس.
لقد ضحكنا وغنّينا ونحن نسوق مركبَنا
وقفزنا إلى النهر بمَرَحٍ مسعورٍ جَذِل.
ثمّ رقصنا حوله
حين ارتفعتْ أشعّةُ الشمس محدِّقةَ إلينا
من حافةِ الماء في حميّا غضبٍ قدسيّ.
ومثل إلهٍ طفل؛
فتح الصبيُّ عينيه
وراح يراقب حركاتِنا بانشداهٍ كبير،
إلى أن تألّقتْ عيناه مثل نجمتَيْ صبح.

رفع يديه المتشابكتين

وترنَّمَ بترنيمة تسبيح

بصوتِه الفتيِّ الشبيهِ بالزقزقة

مثيرًا كلَّ ورقةٍ في الغابة .

أبدًا لم تُغَنَّ من قبلُ

كلماتٌ كهذه لامرأةٍ مخلوقةٍ فانية .

فلقد كانت مثل ترنيمةٍ صامتة

للفجر الذي يبزغُ من وراء التلال الخامدة .

حجبت النسوةُ أفواههنّ بأيديهنّ

وتمايلتْ أجسادُهنّ بالضحك

في حين تقلّصَ وجهُه متشنِّجًا .

مسرعةً أتيتُ إلى جانبه ؛ بأسًى موجعٍ ،

ثمّ قلتُ وأنا منحنيةٌ على قدميه :

«مولاي . . ارْضَ بخدمتي»

قدتُهُ إلى الضفّة المُعشبة،

ونشّفتُ جسدَه بطَرَف عباءتي الحريرية الناعمة،

ثمّ جففّتُ قدميه

بشَعري المُرسَل وأنا جاثيةٌ على الأرض.

حين رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى عينيه

خلتُ أنني أحسستُ

بقُبلةِ العالم الأولى للمرأةِ الأولى.

مقدّسةٌ أنا

مقدّسٌ هو الله الذي خلقَني امرأة.

سمعتُه يقول لي:

«أيّةُ إلهةٍ مجهولةٍ أنتِ؟!

لمستُكِ هي لمسةُ الخالدِ الذي لايموت،

وعيناكِ فيهما سرٌّ منتصَفِ الليل»

آهٍ . . لا

ماتلك بسخريةٍ، ياعضوَ المجلس الملكيّ.

غبارُ حِكمةٍ دنيويّةٍ

يغطّي بصيرتَكَ أيّها الشيخ،

بيْدَ أنّ هذا الطُّهْرَ الفتيَّ قد اخترق السديم

ورأى الحقيقة المُشرقة :

القداسةَ الأنثويّة .

آهٍ،

كيف استيقظت الآلهةُ في داخلي

على ذلك الضوء المُفرط

من ذلك الهيامِ الأوّل؟!

اغرورقتْ عيناي بالدموع

وربّتَ نورُ الصباح على شَعري كأنني أختهُ

وقبّلَ نسيمُ الغابة جبيني

كما يقبِّلُ الزهور.

صفّقت النسوةُ بأيديهنّ

وضحكنَ ضحكاتِهنّ الداعرة،

وبخُمُرٍ متخلّفةٍ على الثرى

وشَعرٍ منثورٍ متأرجح

رحن يرشقْنه بالورود.

واحسرتاه، ياشمسي الطاهرة!

أليسَ بإمكان حياتي

أن يحوكَ سديمًا ملتهبًا ليغطّيكَ بثنياتِه؟

ارتميتُ على قدميه، وصرختُ:

«اعفُ عني»

ثمّ هربتُ مثل أيّلٍ جريح

يتنقّلُ بين الظلّ والشمس

وصرختُ وأنا هاربة :

«اعفُ عنّي»

ضحكاتُ النسوةِ البذيئةُ

كَوَتّني مثل نارٍ وقّادة

ولكنّ الكلمات ظلّتْ تطنّ في أذنيّ :

«أيّةُ إلهةٍ مجهولةٍ أنتِ؟!»

الطبعة الأولى / ٢٠٠٢

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

سعر النسخة داخل القطر ٩٠ ل.س   في الأقطار العربية مايعادل ١٨٠ ل.س